

ضلالت السبتين حول القدّاس الإلهيّ (٢)

٥ أيلول ١٩٩٩

بيّنا في مقالة آنفة (راجع: رعيتي ١٩٩٩/٣٤) أنّ السبتين في تعليمهم عن القدّاس الإلهيّ (بخاصّة كلامهم على رمزيّة القرايين المقدّسة وفريضة غسل الأرجل) خارجون على الحقّ. وسنكمل الردّ، في هذا المقال، على انحرافهم، ونفند نقطتين أخيرتين، هما: (٣) مادّتا "العشاء الربّاني" (الخبز والخمر؛ ٤) وقولهم إنّ هذه الخدمة تقام "أربع مرّات في السنة".

٤- في قولهم إن هذه الخدمة تقام "أربع مرّات في السنة":

الخدمة الإلهية، كما فهمها التراث الأرثوذكسيّ، خدمة واحدة لا تُكرّر، لأنّ حمل الله قدّم نفسه (ذبيحة) "مرّة واحدة... إلى الأبد" (عبرانيين ٧: ٢٧ و ٢٨، ٩: ١١-١٣ و ١٠: ١١-١٤). يصف القديس يوحنا الذهبيّ الفم الخدمة الإلهية الواحدة التي تقام في غير مكان، بقوله: "هل هناك مسحاء كثيرون، لأنّ الإفخارستيا تُقام في أماكن كثيرة؟ كلا...، فكما أنّ الذي يُقدّم في أماكن عديدة هو جسد واحد، وليس أجساداً متعدّدة، كذلك ليس إلاّ ذبيحة واحدة". ويؤكد اللاهوتيّ الأرثوذكسيّ بول أفدوكيموف هذا المعنى، بقوله: "جميع العشاءات السريّة المقدّسة ليست سوى عشاء سرّيّ واحد أزيّ فريد، عشاء المسيح في العليّة. فالفعل الإلهيّ ذاته وقع مرّة في فترة محدّدة من التاريخ ويعاد إحياءه دائماً في السرّ المقدّس". وزيادة في توضيح معنى الخدمة الإلهية أردّد ما قاله الأب بوريس (بوبرينسكوي)، وهو: أنّ الذبيحة الإلهية ليست "تذكّراً لذبيحة المسيح الفريدة وحسب، بل هي عبور من هذا العالم إلى العالم الآتي". فالذبيحة سرّ يستحضر الأبدية في الزمن "فتفتحاه وتتجاوزاه" (من دون أن تلغيه). وهذا تبيّنه الخدمة الإلهية ذاتها، وذلك أنّها توضح أنّنا، في القداس، نتذكّر (أي نقبل هنا والآن) أنّ ابن الله قد أمّم كلّ تدبير الآب الخلاصيّ: "الصليب والقبر والقيامة ذات الثلاثة الأيام

٣- في مادّتي العشاء (الخبز والخمر):

يقول السبتيون إنّ الربّ يسوع استعمل، في عشاءه الأخير، خبزاً فطيراً وعصير العنب غير المختمّر (إيمان الأذفتست السبتيين، صفحة ٣٣٤، ٣٤١، ٣٤٨-٣٥٠). وهذا، ببساطة كليّة، يخالف الكتب المقدّسة التي تكلمت على أنّ يسوع استعمل، في عشاء العهد الجديد، خبزاً مختمراً (أنظر: متى ٢٦: ٢٦؛ مرقس ١٤: ٢٢؛ لوقا ٢٢: ١٩؛ يوحنا ٦: ١٠؛ ١٦ و ١٧، ١١: ٢٣، ٢٦-٢٨). وتكلمت، تالياً، على أنّه استعمل خمراً مختمراً، وذلك أنّ عبارة "عصير (أو: نتاج) الكرمة" التي لفظها الربّ في العشاء الأخير، لا تعني "عصير العنب غير المختمّر"، ولكن "الخمر". واستطراداً أقول إنّ الربّ يسوع (الذي يعرف أنّ الشريعة تشترط أن يشرب الناس الخمر باعتدال وقناعة) بارك الخمر في عرس قانا الجليل (يوحنا ٢: ١-١١)، واستعمله، في أمثاله، كمادّة تشفي (لوقا ١٠: ٣٤؛ أنظر أيضاً: ١ تيموثاوس ٥: ٢٣)، وقد قيل فيه إنّ كان يشرب الخمر (متّى ١١: ١٩). وهذا، لا شكّ، له معانيه، وذلك أنّ كلّ ذكر للخمر (الجديد)، في العهد الجديد، هو قبل كلّ شيء، يذكّر المؤمنين أو يقودهم إلى فرح الإفخارستيا (كونه جزءاً من عشاء الربّ).

إنّ انحراف السبتيين - ومن قال أقوالهم - يشوّه الحقيقة التي يعطينا الله إياها كلّما اجتمعنا معاً، والحقيقة (جسد ابن الله ودمه الحقيقيان) التي حاولنا أن نظهر مضمونها، في مقالتين متتاليتين، هي التي تعتق الكنيسة من بعثرة الوجود والموت، وذلك أنّها "دواء الخلود"، كما يقول القديس أغناطيوس الأنطاكيّ (+١٠٧)، وهي: "تقدمة معدّة لتحفظنا من الموت وتؤمّن لنا الحياة الدائمة في المسيح" (أنظر: رسالته إلى كنيسة أفسس ٢٠: ٢).

والصعود إلى السموات والجلوس عن يمين الآب والمجيء الثاني الرهيب" (أنافورا القديس يوحنا الذهبيّ الفم)، وهذا له مدلولاته في الكتب المقدّسة (أنظر: متى ٨: ١١، ٢٦: ٢٩، مرقس ١٤: ٢٥ ولوقا ٢٢: ١٨؛ رؤيا ١٩: ٩). ومن النافل القول إنّنا قد تسلّمنا أن نقبل عشاء الربّ، كلّما عُرض علينا: في كلّ يوم أحد (لأنّه يوم القيامة)، وفي الأعياد الخلاصيّة (وهي الفصح في تعدّد وجوهه)، وفي أعياد الشهداء والقديسين (لأنّهم أظهروا استمراريّة قوّة القيامة وفعلها في التاريخ)، وأن نقبله، كلّ مرّة، بحبّ وإخلاص كاملين، متذكّرين أنّ "يسوع المسيح الذي قام من بين الأموات" (٢ تيموثاوس ٢: ٨)، هو محيينا الآن وفي كلّ وقت. فنحن، إذًا، لسنا أمام "عمل" تنطبق عليه مقولة العدد، ولا أمام ذكرى قديمة نعود إليها "بالفكر والتصور" (تقول ألن هوايت، في كتابها مشتهى الأجيال: "ونحن إذ نتناول من الخبز والخمر... فإننا بالفكر والتصور ننضمّ إلى مشهد العشاء في العليّة"، صفحة ٦٢٩)، ولكن أمام خلاص الله الذي يتمّ من أجلنا "الآن وهنا". وهذا يجعلنا نفهم ما هو معنى كلام القديس باسيليوس رئيس أساقفة قيصرية كبدوكية، لما قال: إنّهُ وتلاميذه يتناولون القرايين الإلهيّة "أربع مرّات في الأسبوع، ونشعر بأنّ هذا قليل"، فهو، من دون ريب، لم يرد أن يعدّ المرّات التي تقيم فيها كنيسة الخدمة الإلهيّة، بل أن يدلّ على أنّ حياته - وحياة كنيسته - مصدرها هذا القدّاس الذي يفيض منه حضور المسيح وألوهيّته.